داود

عليه السلام

ابتداء ظهوره:

أغار الغزاة على بنى اسرائيل فقتلوا منهم خلقًا كثيرًا، وسبوا نساءهم، ويتموا أطفالهم، فجاءوا إلى نبيهم الذى كان بينهم ثائرين قائلين:

ابعث لنا ملكًا نوليه علينا فتكون له القيادة والزعامة، ويجمع كلمتنا على قتال الأعداء الذين أذلونا وقتلوا منا الكثير.

وكان نبيهم على علم بجبنهم وتخاذلهم، فقال لهم مثبتًا:

أحقًا ستقاتلون إن كتب عليكم القتال وأصبح الأمر جدًّا؟ فأجابوه مؤكدين قائلين:

﴿وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾ (البقرة: ٢٤٦)

ولكن ظن نبيهم فيهم كان صادقًا، فإنه بمجرد أن كتب عليهم القتال

تولوا إلا قليلاً منهم. ويعقب الله على ذلك بقوله تعالى: والله عليم بالظالمين.

وبيان الأمر أن نبيهم أعلن لهم أن الله قد بعث لهم (طالوت) ملكاً، فجادلوا مباشرة فى الأمر، ومن طبعهم الجدال، وقالوا: كيف يكون له الملك علينا؟

إننا أحق بالملك منه. على أنه ليس بغنى، إنه لم يؤت سعة من المال. وكان تقديرهم للمال كبيرًا كما هو دائمًا، هذا الطبع الذى يعبد المال ويتخذ من الذهب إلهًا.

ولم يشأ نبيهم أن يجاريهم فى الجدل. فقال فى صورة حاسمة:

﴿إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم، والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم﴾ (البقرة: ٢٤٧).

وقال لهم نبيهم أيضًا: إن من علامات ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون تحمله الملائكة إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين.

وسار (طالوت) بالجنود لحرب الأعداء، وأحب طالوت أن يجرى تجربة ليرى مدى استعداد بنى اسرائيل للحرب، فقال لجنوده:

﴿إن الله مبتليكم بنهر﴾ (البقرة: ٢٤٩).

قال ابن عباس رضى الله عنه:

(هو نهر الأردن، وهو المسمى بالشريعة).

﴿فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده﴾ (البقرة: ٢٤٩).

كان هذا اختبارًا، وسقط فى هذا الاختبار الكثير، يقول تعالى:

﴿فشربوا منه إلا قليلاً منهم﴾ (البقرة: ٢٤٩).

لقد تعمدوا أن يشربوا حتى لا يذهبوا إلى قتال، وحتى يرجعوا دون جهاد، فقد طبعوا على الجبن، والله تعالى يقول عنهم.

﴿لا يقاتلونكم جميعًا إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون﴾ (الحشر: ١٤)

ولقد أصبحت الطائرات بالنسبة لهم هى القرى المحصنة، أو هى الجدر التى يختبئون وراءها، أما الحرب وجهًا لوجه فإنهم أجبن من أن يمارسوها.

والتقى الجيشان، وبرز جالوت مناديًا للقتال، فخرج إليه «داود» عليه السلام - وكان جنديًا فى الجيش ولم يشرب من النهر.

﴿وقتل داود جالوت﴾.

وحينما جاء وقت النبوة:

﴿آتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء﴾.

ويعقب الله سبحانه على ذلك كله بقوله:

﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾.

ويقص الله سبحانه وتعالى ذلك كله فى القرآن الكريم قائلاً:

﴿ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكًا نقاتل فى سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألاتقاتلوا قالوا ومالنا ألانقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين. وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكًا، قالوا: أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه، ولم يؤت سعة من المال، قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم، والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم. وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين. فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده، فشربوا منه إلا قليلاً منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لاطاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين. ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا

ربنا أفرغ علينا صبرًا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين. فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء﴾ (البقرة: ٢٤٧-٢٥١).

لقد قتل داود جالوت، وانهزم جيش جالوت، فتطلعت الأعين إلى داود، وهفت إليه الأفئدة، وعظم فى أعين الاسرائيليين، فولوه عليهم ملكًا.

وقوله تعالى: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ إنما يعنى والله أعلم - أنه لولا إقامة الله تعالى للحكام الذين يعملون على استتباب الأمن وإنصاف المظلومين وفرض العدالة، لولا ذلك لفسدت الأرض لأن غرائز الملك والسيطرة والاستعباد تجعل القوى يأكل الضعيف، ويغتصب القادر أموال غير القادر، وهكذا.

ومن هنا كان قول سيدنا عثمان رضى الله عنه:

«إن الله ليزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن».

ومن هنا كانت الحكمة:

(السلطان ظل الله فى أرضه).

نعم الله على داود: ...

كان داود نبيًّا ملكًا، ولقد آتاه الله من هباته ونعمه الكثير، من ذلك: أنه كان رسولاً صاحب كتاب: إنه الزبور، وهو كتاب من كتب الله المنزلة.

وإذا كان إبراهيم عليه السلام أوتى صحفًا، وأوتى موسى عليه السلام الألواح فيها التوراة، فإن داود أوتى الزبور، وآتاه الله سبحانه صوتًا جميلًا، وهو منحة فى غاية النفاسة، وجمال الصوت عند داود ليس على المعنى العادى الآلى فى الأنغام والألحان ونسبها المحددة ليخرج الصوت جميلًا.

لقد كان هذا عند داود، ولكن صوت داود كان له طابع آخر هو الذى أعطى له تلك النفاسة الهائلة التى كانت له.

إن الأصوات الجميلة تمتزج بأرواح قائليها، وكلما صفت الروح، وكلما تركت النفس وامتزجت بالغناء والترتيل، كان الصوت أجمل، وكانت جاذبيته أقوى.

وكلما كان الشعور مرهفًا، وكان الحس متأثرًا بما يقال، كان الصوت أكثر تأثيرًا.

وما كان داود يشعر بنفسه وهو يرتل الزبور ويتغنى به، وإنما كان فانيًا فيما يعبر عنه من كلمات الزبور.

إنه كان مستغرقًا فى الزبور - أى أنه كان مع الله وهو يتغنى بكلمات الكتاب المقدس - بل لقد كان فانيًا فى الله جل جلاله، لقد كان يتغنى ويبكى، لقد كان زبورًا مترغًا، فكان لحنًا ربانيًّا.

يعبر القرآن - فى صور جميلة - عن تأثير داود البالغ أثناء تغنيه، وهو سبحانه يسمى ذلك تسبيحًا، فيقول:

﴿إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق، والطير محشورة كل له أواب﴾.(ص: ١٨-١٩).

ويقول سبحانه:

﴿يا جبال أوبى معه والطير﴾ (سبأ: ١٠).

ويقول سبحانه:

﴿وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين﴾ (الأنبياء: ٧٩).

ولقد تابع المفسرون القرآن الكريم فى الحديث عن صوت داود عليه السلام، فيقول الأوزاعى:

حدثنى عبد الله بن عامر قال: «أُعطى داود من حسن الصوت مالم يعط أحد قط، حتى أن كان الطير والوحش ينعكف حوله حتى يموت عطشًا وجوعًا، وحتى أن الأنهار لتقف».

ويقول الإمام ابن كثير:

«وذلك أنه كان الله تعالى قد وهبه من الصوت العظيم ما لم يعطه أحد، بحيث أنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه يقف الطير فى الهواء يرجع بترجيعه، ويسبح بتسبيحه، وكذلك الجبال تجيبه وتسبح معه كلما سبح بكرة وعشيًّا، صلوات الله وسلامه عليه.

وعن عائشة رضى الله عنها قالت:

سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوت أبى موسى الأشعرى وهو يقرأ فقال:

«لقد أوتى أبو موسى من مزامير آل داود».

وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«لقد أعطى أبو موسى من مزامير داود».

وتغنى داود بالزبور جعل الفقهاء يتساءلون:

يقول عبد الرازق ناقلا عن ابن جريج قال:

سألت عطاء من القراءة على الغناء، فقال:

وما بأس بذلك؟

وهبة أخرى من هبات الله سبحانه لداود يعبر عنها القرآن بقوله:

﴿وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون﴾ (الأنبياء: ٨٠)

لقد علمه الله سبحانه صناعة الدروع لتقى المحاربين من سهام الأعداء.

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿وألنا له الحديد، أن اعمل سابغات وقدِّر فى السرد واعملوا صالحًا إنى بما تعملون بصير﴾ (سبأ: ١٠-١١).

ويقول عكرمة ومجاهد وغيرهما فى قوله تعالى:

﴿وقدّر فى السرد﴾.

أى لا تدق المسمار فيغلق، ولا تغلظه فينفصم.

ومعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى علمه صناعة الدروع فى إجمالها وفى تفاصيلها، وكانت صناعة الدروع مهنته التى كان يتكسب منها لعيشه، وهو رغم ما كان فيه من ملك وأبهة، ورغم ما كان تحت يده من مال كثير، كان يعيش من عمل يده.

ولقد ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم كمثل كريم للكسب الحلال. فقال:

«إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن نبى الله داود كان يأكل من كسبه»، (رواه البخارى بنحوه)

ولقد أوجب الإسلام فى الكسب أن يكون من حلال، وحث على ذلك بشتى الطرق، ومن ذلك ما رواه ابن مردويه - بسنده - عن ابن عباس قال:

«تليت هذه الآية عند النبى صلى الله عليه وسلم ﴿يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيبًا﴾ فقام سعد بن أبى وقاص فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة، فقال:

«يا سعد، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذى نفس محمد بيده

إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه أربعين يومًا، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به».

وما رواه أحمد ومسلم والترمذى - بسندهم - عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال ﴿**يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحًا إنى بماتعملون عليم**﴾ وقال: ﴿**يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم**﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يارب، يارب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك»؟

ومن الهبات التى منحها الله لداود عليه السلام هبة القوة، يقول سبحانه:

﴿**واذكر عبدنا داود ذا الأيد**﴾ (ص ١٧)

والأيد: القوة.

لقد كان داود عليه السلام قويًّا فى كل ما يأتى من الأمور.

لقد كان قويًّا فى أمور العبادة، وهذا هو المراد هنا على ما ذكره أكثر المفسرين:

فى الصلاة والصيام وغيرهما، وقد ورد فى الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يومًا ويفطر يومًا، ولا يفر إذا لاقى» رواه أحمد والشيخان وأبو داود والنسائى.

وكان قويًّا فى بكائه - إن صح هذا التعبير - حينما كان يرتل الزبور وكان قويا فى السيطرة على مملكته ومن أجل ذلك يقول الله تعالى عنه:

﴿وشددنا ملكه﴾.

أما العقل والمنطق فيقول الله عنه:

﴿وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾ (ص: ٢٠)

وهذا من القوة.

وهو الذى قتل جالوت، وكان جالوت جبارًا قويا.

قضاؤه فى الخصومة:

أما ما نحب أن ننبه إليه فهو القصة التى قصها الله سبحانه وتعالى بقوله:

﴿وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب، إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا

بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط، إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزّنى فى الخطاب. قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيرًا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم، وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخرّ راكعًا وأناب، فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ (ص ٢١-٢٥).

لقد كان داود - عليه السلام - يعتكف أحيانًا، ويترك أمر الملك دون تصريف، وللناس مصالح، وعلى الملك للجمهور تبعات، وبينما هو معتكف إذ دخل عليه رجلان، واشتكى أحدهما من الآخر، وفصل داود بينهما، فلما ذهبا فكر داود فى الأمر، وظن أن الله سبحانه وتعالى فتنه بأن حبب إليه الاعتكاف حتى بلغت حاجة الناس إليه أن تسوروا عليه المحراب، وظن داود أنه أساء إساءة بالغة فأخذ فى الاستغفار، وخر راكعًا وأناب، يقول تعالى:

﴿فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾

يقول الإمام جمال الدين القاسمى:

«وفى قضائه عليه السلام - هذا من الحكمة وفصل الخطاب مايهيج الأفئدة، ويقر عين المغبون، ذلك أنه صدع بالحق أبلغ صدع، فجهر بظلم خصمه وبغيه جهرًا لا محاباة فيه ولا مواربة، فأقر عين المظلوم، وعرف الباغى ظلمه وحيفه، وأن سيف العدل والإنصاف فوقه، ثم نفّس عن قلب

المظلوم البائس، وروّح عن صدره بذكر ما عليه الأكثر من هذه الخلة – خلة البغي وعدم الإنصاف – مع الخلطة والخلة، ليتأسى ويتلى كما قيل: «إن التأسى روح كل حزين». ثم أكد الأمر بقلة القائمين بحقوق الأخوة ممن آمن وعمل صالحًا، فكيف بغيرهم؟.. وكلها حكم وغرر ودرر حقائق تنطبق على أكثر هذا السواد الأعظم من الناس، الذين يدعون المحبة والصداقة، ولعظم شأن حقوق المحبة أسهب فى آدابها علماء الأخلاق إسهابًا نوعوا فيه الأبواب، ولوّنوا فيه الفصول، ومع ذلك لا تزال الشكوى عامة، وقد امتلأت من منظومها ومنثورها كتب الأدب، كما لا يخفى على من له إلمام به وبالله التوفيق».

﴿وظن داود أنما فتناه﴾ أى ابتليناه بتلك الحكومة. فاستغفر ربه وخر راكعًا وأناب ﴿فغفرنا له ذلك﴾ أى ما استغفر منه ﴿وإن له عندنا لزلفى﴾ أى لقربى ﴿وحسن مآب﴾ أى مرجعًا حسنًا وكرامة فى الآخرة.

داود والعدالة:

يقول تعالى:

﴿ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾ (ص: ٢٦)

ولقد تحدث القرآن الكريم، وتحدث الرسول صلى الله عليه وسلم

والصحابة وعلماء الإسلام بالكثير، يقول تعالى فى العدالة مع الأعداء فضلاً عن الأولياء والمؤمنين:

﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا﴾ (المائدة: ٢)

ويقول:

﴿يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ (المائدة آية: ٨).

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يقسطون فى أهليهم وحكمهم وما ولوا» (رواه مسلم).

وعن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلسًا: إمام عادل، وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذابًا: إمام جائر» (رواه أحمد والترمذى).

من حِكَمه:

ولقد روت كتب التفسير وكتب التاريخ شيئًا من حِكَمه، من ذلك

ما رواه عبد الله بن المبارك فى كتاب الزهد: أنبأنا سفيان الثورى، عن رجل، عن وهب بن منبه قال:

«إن فى حكمة آل داود: حق على العاقل ألا يغفل أربع ساعات: ساعة يناجى فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يصغى فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه، ويصدقونه عن نفسه، وساعة يخلى بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل، فإن هذه الساعة عون على هذه الساعات، وإجمام للقلوب، وحق على العاقل أن يعرف زمانه، ويحفظ لسانه، ويقبل على شأنه، وحق على العاقل ألا يظعن إلا فى إحدى ثلاث: زاد لمعاده، ومرمة لمعاشه، ولذة فى غير محرم».

ومن حكمه أيضًا:

«يا زارع السيئات، أنت تحصد شوكها وحسكها».

وعن ابن شهاب قال: قال داود:

«الحمد لله كما ينبغى لكرم وجهه وعز جلاله، فأوحى الله إليه: إنك أتعبت الحفظة يا داود».

ومن أجمل ما روى عن داود عليه السلام ما رواه أبو عمران الجونى عن أبى الجلد قال:

قرأت فى مسألة داود عليه السلام أنه قال: يارب كيف أشكرك وأنا لا أصل إلى شكرك إلا بنعمتك؟

قال: فأتاه الوحى أن يا داود، ألست تعلم أن الذى بك من النعم منى ؟

قال: بلى يارب.

قال: فإنى أرضى بذلك منك.